مجلة

كلية الآداب

جامعة فاروق الأول

المجلد الرابع

١٩٤٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية

الاسكندرية

مطبعة التجارة

كمل طبع المجلد الرابع من مجلة كليـة
الآداب بجامعة فاروق الأول بمطبعة
التجـارة بالاسكندرية فى شهر المحرم
سنة ١٣٦٨ (نوفمبر سنة ١٩٤٨)

جامعة فاروق الأول
مجـلة كلية الآداب

المجلد الرابع ١٩٤٨

موضوعات القسم العربي صحيفة

سعادة الاستاذ محمد كرد علي بك	المستعربون من علماء المشرقيات	١ ـ ١٧
الدكتور ابراهيم احمد رزقانة	قمة دلتا النيل — وتغيير موضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت الحاضر . . .	١٨ ـ ٣٨
الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة	الممالك الحليفة او ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية الى ايام المعتصم	٣٩ ـ ٨١
الدكتور محمد مصطفى صفوت	موقف المانيا ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر	٨٢ ـ ١٢٠
الاستاذ زكى علي	الاسكندرية فى عصر البطالمة — بعض مظاهر الحضارة بها (تتمة)	١٢١-١٤٠
الدكتور نجيب بلدى	الفلسفة بين مصر والغرب	١٤١-١٦١
الدكتور السيد محمد بدوى	السحر وعلاقته بالدين عند الشعوب البدائية	١٦٢-١٧٩
الدكتور نجيب بلدي	الفلسفة واللغه	١٨٠-١٩٢
عبد الحميد العبادى بك	تقرير عن المؤتمر الثقافى الاول بلبنان . .	١٩٣-١٩٦
الاستاذ احمد محمد العدوي	تقرير عن المؤتمر الثقافى بلبنان	١٩٧-٢٠١
الاستاذ محمد خلف الله	تقرير عن المؤتمر الثقافي بلبنان	٢٠٢-٢٠٥
الدكتور عبد المنعم أبو بكر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق	تقرير مؤتمر الآثار بالبلاد العربية الذي انعقد بدمشق فى سبتمبر سنة ١٩٤٧	٢٠٦-٢٠٨

الفلسفة واللغة

بمناسبة صدور الطبعة الخامسة للقاموس الفلسفى
للأستاذ لالاند

ترك الأستاذ أندريه لالاند ، عضـو المجمع العلمى الفرنسى ، كرسى الفلسفة بجامعة فؤاد فى مارس سنة ١٩٤٠ ، وبقى أثناء سنى المحنة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غير المحتلة ، ثم استقر أخيرا فى باريس مترقبا تحرر فرنسا. ومنذ رجوعه لفرنسا حتى اليوم ، وقد جاوز الثمانين ، اشتغل طول الوقت باعداد مقالات جديدة ، وإعادة طبع كتبه وتنقيحها والزيادة فيها ، ونشر ما لم يتيسر له نشره من دراساته ومحاضراته .

ليس أستاذنا لالاند فيلسوفا كهاملان (Hamelin) صاحب مذهب تنتظم فيه الأفكار ، أو كبرجسون مخترع منهج فلسفى تدرس فى ضوئه المشكلات . ولكنه كان ، وما زال ، خير معلمى الفلسفة . كان ، وما زال ، عقلا محللا ، يوجه تلامذته وأصدقاءه الفلاسفة ، ويشجعهم على القيام بالدراسات المنطقية اللغوية ، يدعوهم ، رغم ما بينهم من اختلاف أوجه النظر ، الى التعارف والتداول والمناقشة. — وفق فى مبدأ حياته الفكرية ، مع صديقه كزافييه ليون (Xavier Léon) ، الى تأسيس الجمعيـة الفلسفية الفرنسية . وليس أدل على توفيقه من التفـاف ممثلى الفكر الفرنسى المعاصر حوله ، بل والفكر العالمى أيضا ، لمناقشة أهم المشكلات العلمية العامة والفلسفية أثناء جلسات الجمعية، ومن تدوين هذه المناقشات فى مجلة(١)

(1) *Bulletin de la Société Française de Philosophie.*

تصدر تباعاً حتى اليوم منذ سنة ١٩٠١ . كما أن أظهر علامة على مجهود الاستاذ تخصيص أهم مناقشات الجمعية لدراسة عناصر اللغة الفلسفية الفرنسـية ، والمقارنة بين مصطلحاتها على مر العصور : عمل الأستاذ لالاند على إعداد هذه المناقشات ، فبعد تعيين المصطلحات الأوروبية القديمة والحديثة المقابلة لكل كلمة فلسفية فرنسية ، يحرر الأستاذ بنفسه تعاريف الكلمة وما يلزم هذه التعاريف من الشروح ، مستعيراً من أعظم الفلاسفة والكتاب ، أفضل النصوص التى تمثل استعمال الكلمة . ثم يعرض نتائجه هذه على أعضاء الجمعية الفلسفية ، فيناقشونها ويدلون آراءهم بصددها ، ثم يقرن الأستاذ هذا البحث المخصص لكل كلمة فلسفية ، بدراسة نقدية ، يجمع فيها بين مقارنة الاستعمالات المختلفة للكلمة ، واستخلاص نتائج المناقشة التى قامت بين الأعضاء وبينه بصدد المقال .

عمل جليل حقا كرس له الأستاذ أوقاته الثمينة مدة عشرين عاما ، وظهرت ثمرته فى سنه ١٩٢٦ تحت عنوان «قاموس المصطلحات الفلسفية الفنى والنقدى»(١) في مجلدين. هذا العمل الذي صدرت طبعته الخامسة، منذ بضعة شهور فى مجلد واحد، طبعة مزيدة ومنقحة ، هو ما نزمع التكلم عنه اليوم .

* * *

يقـول مونتيني (Montaigne) فى فصل من فصوله المتعة ان « أغلب خصوماتنا تقوم على أغلاط لغوية» . — نعرف أن فرنسيس بيكون كان له رأي مماثل ، وإنه كان يعتبر تاريخ الفلسفة كله منذ العصور القديمة مسرحاً لمناقشات تافهة حول الكلمات .

وإن كان بيكون مخطئاً فى تقديره هذا ، ومتشيعاً لعصره فى معاداة المدرسين،

(1) *Vocabulaire Technique et Critique de Philosophie* (Presses Universitaires, de France 5e édition, Paris 1947).

إلا أنه وجه بعد مونتيني نظر الباحثين الى منزلة دراسة اللغة وأساليبها وكلماتها من الفكر الفلسفي . — ولسنا مبالغين ان قلنا بهذا الصدد أن الفلاسفة ، فى نظر رجلين كسقراط وأفلاطون ، لم تكن إلا دراسة دقيقة لبعض كلمات يتداولها الناس فى حديثهم ، وتدل على معان يحققها كل منهم فى حياته طول الوقت ، نقصد كلمات مثل الفضيلة والعلم والشجاعة والعفاف والجمال والوجود وما الى ذلك . وإن لم تبلغ دراسة هذين الرجلين لمعانى الكلمات ، الى نتائج نهائية ، فهى وجهت على الأقل نظر الناس الى أمر هام : هو أننا نتفوه فى أغلب الأحيان بكلمات لا ندري معناها أو تحمل على معان متناقضة أو استخلصت من تجارب لا تربط بينهما عوامل مشتركة .

اعتبرت الفلسفة القديمة إذن دراسة للغة عند اثنين من كبار ممثليها . وان كان المجال لا يسمح لنا بتتبع هذا التأويل للفلسفة (١) أو بالتنويه عمن كان يعارضه أشد المعارضة ، كديكارت وتلامذته من الديكارتيين ، الذين كانوا يبحثون عن الأشياء فى ذاتها ، ويعملون على التأمل مباشرة مُثُلها دون ستار الألفاظ ، إلا أن هذه الاشارة تجعلنا نفهم ، لِمَ اتخذت ثورة هيوم على الفلاسفة ، صورة بحث نقدى فى معانى الكلمات الفلسفية . يتساءل هيوم: الى أى تجربة واقعية يصح أن نرجع هذه المعانى ؟ — وان تبين أن هناك كلمات للفلاسفة لا تستند الى تجربة شعورية أو حسية ، أليس من واجبنا إقصاء هذه الكلمات ؟

لا يبغى أستاذنا لالاند فى قاموسه أو فى سائر مؤلفاته إرجاع المعانى الفلسفية الى التجربة الحسية أو الشعورية ، ولكنه يقوم بصدد الألفاظ ، بمجهود عظيم لتفهم أوجه استعمالها راجعا فى ذلك الى تاريخ اللغة وتاريخ الفكر .

(١) راجع هنا كتب بريس باران القيمة وخاصة
Brice Parrain: *Les Fonctions du Langage.* (Paris. 1942).

وإن كنا لا نستطيع فى دراستنا اليوم الالمام بالنواحى العديدة القيمه للقاموس فاننا سنعمل على الأقل على الاشارة الى ما يرمى اليه من أغراض هامة ، وما يستخدمه من طرق دقيقة لتحديد معانى الكلمات ، ممثلين لهذه الطرق ببعض أمثلة من القاموس .

ينبهنا الأستاذ لالاند فى مقدمة الطبعة الخامسة الى ما نجده عند بعض المفكرين وأشباه المفكرين ، من ألفاظ مُغرِية ، ألفاظ كالوجودية والتعالى والفكر المتعالى ، يتوهم السامع أن وراءها معانى عميقة . الوظيفة الأولى للقاموس الفلسفى هى تحرير العقل من وطأة الألفاظ ، ولايتم هذا التحرير إلا بالبحث فى الألفاظ ذاتها وبتحديد مختلف معانيها . — إنما يجدر بصاحب القاموس ، قبل أن يحدد المعانى الفلسفية ، وهى معان مجردة كما نعرف ، أن يجد أصل استعمالها ، أن يتلمس الطريق الذى سلكه الانسان عند ما ترك التجربة الواقعية وشرع يُجرِد ويتفلسف . يجد المدقق مع الأسف أنه قلما يدرك الأصل الحقيقى لمعنى كلمة من الكلمات ، قلما يعثر على جذر المعانى كلها ، بل يتعذر عليه تعيين طريق مفهوم بين الأصل والفروع ، أو حتى الكيفية التى اجتمعت بها الفروع فى جذع واحد . يبدو أن الكلمات تتخذ منطقا شاذا ، وأن بعضها لا يتخذ منطقا على الاطلاق . لنأخذ مثلا كلمة «طبيعة» (Nature) : شتان بين معنى هذه الكلمة فى عبارة روسو الشهيرة : « لنرجع لحالة الطبيعة » ، وبين معانيها عندما نتكلم عن طبيعة الذرة ، عن جمال الطبيعة ، أو عن قوانين الطبيعة .

وان ادعى البعض أن العبرة ليست بالكلمات بل بالمعانى ، وشرع الباحث فى إيجاد معان خالصة عارية ، لما وجد فى الذهن شيئا منها ، لا لأن الذهن صندوق

فارغ أو ورقة بيضاء كما يقول البعض ، بل لأن المعنى عبارة عن استخدام هذا الفيلسوف أو ذاك للكلمات، ولأن لكل كلمة حياة وتجربة وتاريخا فلسفيا مرتبطا بها، وأن المعانى لا تُكتَشَفُ إلا بتفصيل هذا التاريخ . وقد يكون التفصيل أمراً شاقا متعذرا كما ذكرنا إنما يمكن القيام على الأقل ، بصدد الكلمات الفلسفيه بوجه عام، وما شاع فى الاستعمال منها بوجه خاص ، باحصاء المعانى الهامة ، ومراعاة ما اذا كانت هذه المعانى متصلة فيما بينها ، وطبيعة هذا الاتصال ، ثم ، ان كانت منفصلة ، التساؤل عما اذا لم يكن هذا الانفصال جزءاً من منطقها الغريب .

لنوضح الآن كيف قام حضرة الاستاذ بهذا العمل، راجعين لبعض أمثلة هامة، وسنشير فى نهاية مقالنا الى ما بلغ اليه من نتائج .

يلاحظ الاستاذ بصدد كلمة « صدفة » (Chance) أصلها اللاتينى فى كلمتى (cadentia) ، (cadere) وارتباطها اللغوى بالكلمة الايطالية (Cadenza) . ومعنى هذه الكلمات الأصلى هو السقوط ، وخاصة سقوط زهر النرد ، ثم سقوط أو نزول النوائب . ولا شك أن هذا الأصل يبرر استخدام الكلمة فى الفلسفة للدلالة على الظواهر الاتفاقية ، ظواهر يدرسها العلم الفيزيقى وحساب الاحتمالات .

يلاحظ أيضا الاستاذ بصدد كلمة (Raison) «عقل وسبب» ، اشتقاق الكلمة من الفعل اللاتينى (reor) ، واسم المفعول (ratus) ، أى يحسب ويقوم بعملية حسابية . ولكنه يلاحظ أيضا أن نفس الكلمة (ratio) تستخدم عند الكتّاب اللاتينيين فى العصر الكلاسيكى ، للدلالة على الحساب ثم على النظام العقلى ثم على السبب . ولا يستطيع أن يوضح كيف يمكن لكتّاب عصر واحد أن يستخدموا نفس الكلمة فى معان متباينة ، دون أن يعينوا مبررا ظاهرا لتعدد هذه المعانى .

لننتقل مع الأستاذ الآن الى بعض كلمات هامة شاع استعمالها ، وأولاها كلمة «الطبيعة» (Nature) التى أشرنا اليها فيما سبق : هذه الكلمة من أقدم المصطلحات الفلسفية ، نجدها عند الفلاسفة الاغريقيين كعنوان لأسفارهم الشعرية والفلسفية ، ونجـــدها أيضا فى عنوان مؤلف رائع للشاعر والفيلسوف اللاتينى لوكريس . (Lucrèce) .

ما معنى أو ما معانى هذه الكلمة بالضبط ؟ للاجابة عن السؤال ، يجدر بنا أن نميز بين طائفتين رئيسيتين: نطلق «الطبيعة» أولا على صورة كائن من الكائنات أو على ماهيته ، ونطلقها ثانيا على الكائنات ككل ، على العالم بأكمله .

لننظر للطائفة الأولى : تعتبر الطبيعة مبدئيا كماهية كائن أو ماهية جنس من الكائنات . ولا يبعد كثيرا عن هذا المعنى استخدام ديكارت للكلمة : فالطبائع البسيطة عنده ، عبارة عن الكائنات من حيث أنها معقولة ، موضع نظرة بسيطة ساذجـة . — وإن خصصنا الكائن وأردنا به الانسان أو الحيوان أصبحت «الطبيعة» دالة على الغرائز ، على ما للانسان من فطرة ، بعكس ما يكتسبه بالتجربة. أما إن نظرنا للانسان كعضو فى مجتمع متحضر ، دلت « الطبيعة » على حاله قبل التحضر ، وإن نظرنا له ككائن دينى دلت على حاله قبـل الوحى أو الخطيئة ، وإن نظرنا له أخيراً ككائن فردى له استعدادات وميول خاصـة تتغير حسب الظروف ، فطبيعته هى طابعه أو سمته — . لدينا فيما سبق طائفة اولى من معـانى «الطبيعة» تظهر فيها متفرعة عن أصل واحد .

ان نظرنا للطائفه الثانيه من المعانى وجدنا بعض الصعوبة في تفهم ارتباطها فيما بينها ، وخاصة فى معرفه صلتها بالطائفه الاولى من المعاني: تطلق «الطبيعة» على الكل ، علي كل ما في العالم ، علي العـالم باكمله ، وخاصة على الكل من حيث يحقق نظاما أو يتبع قوانين ، أو يظهر قيام مبدأ فعال فى العالم ، سواء كان المبدأ

عقلا ساريا بين الكائنات ، أو غاية عمياء تنشدها هذه . وقد تطلق الطبيعة على ما لا يتبع نظاما معقولا ، كما تطلق كثيرا على العالم المنظور وخاصة على عالم النباتات . — أما المعانى الرئيسية لهذه الطائفة فتتفاوت حسب النظام المقصود أو نوع القوانين المتبعة : يقصد الفيلسوف الألمانى كنت « بالطبيعة » قوانين ضرورية ، أما باركلى فيريد بها مجموعة القوانين التى وضعها الله للعالم بفعل ارادته ، وقد يكون النظام المقصود خلقيا ، وهنا تعنى «الطبيعة» مجموعة القوانين الكامنة فى النفس ، التى إن حاد عنها الانسان أنبه على ذلك ضميره تأنيبا شديدا.

ما الذى نستخلصه من هذا التنوع الغريب؟ إن تطور معانى الكلمة لم يتخذ طريقا واحدا مستقيما ، بل كان معقدا متشعبا ، متجها كأشعة الضوء اتجاهات مختلفة . لا بل ان بعض هذه المعانى تتنافر فيما بينها ، حتى إن استخدمنا الكلمة فى معنى معين ، تعذر استخدامها فى المعانى الأخرى دون إطالة شرح وتفسير . ولذلك يقترح الأستاذ ، فى نهاية مقاله ، عدم استخدام الكلمة إلا فى النادر وعندما يكون الغرض منها واضحا كل الوضوح : فيقصر «الطبيعة» إما على العالم المنظور وخاصة النباتات والأشجار ، أو على العالم من حيث لا يحقق نظاما ظاهرا ، ثم ينصح فى الأحوال الاخرى باستخدام غيرها من الكلمات ، كماهية وغريزة ، للطائفة الاولى ، وكعالم وعقل وضرورة وقوانين ، للطائفة الثانية .

غير أن هذه النتيجة السلبية التى يقف عندها الاستاذ فى بحر مقاله لا ترضى بعض الفلاسفة ، ممن كان حاضرا مناقشة الكلمة : فيرى لاشلييه (Lachelier) ، ومكانته معروفة بين الفلاسفة المعاصرين ، أنه من الواجب على الباحث الفيلسوف أن يتعدى التنوع القائم بين معانى كلمة واحدة ، لأن هذا التنوع ظاهرة نلاحظها فى التاريخ ، ولا تخضع حتما لمعيار العقل . وعلى الباحث أن يكشف أيضا عن معنى أصيل متغلغل فى جميع الاستعمالات الأخرى . يقول لاشلييه : لو دققنا فيما

نعنيه ، وجدنا أن «الطبيعة» تدل قبل كل شيء على الوجود ذاته ، من حيث يعين ذاته ويتطور من الداخل رغم التأثيرات الخارجية .

لننظر الآن لكلمة لها أهميتها من نواح أخرى ، هي كلمة «العلة» (Cause) . نجد الاستاذ يدلي بصددها بملاحظات فقهية لم يسمح بها تاريخ كلمة « الطبيعة » . «العلة» (cause) من اليونانية *(aition)* هي في الأصل ، الانسان المسؤول ، أو من يُوجَّه له الاتهام في قضية جنائية معينة . و«العلة» باللاتينية (causa) ومنها الايطالية (cosa) ، لها في الأصل معنيان واقعيان على الأقل : القضية بالمعنى المعروف في المحاكم ، ثم الشيء موضوع الحديث — . جليّ أن هذه الأصول أثرت في تطور معاني الكلمة الى حد بعيد : «فالعلة» اذا اعتبرناها كمبدأ فعال تحدث عنه الآثار ، لهي أقرب الأشياء الى الارادة الانسانية التي تعمل وتتحمل تبعة أعمالها . أما اذا وجهنا النظر الى المعنى العلمي للعلة ، «فالعلة» شرط التغير والحدوث ، شرط هو جزء من الظاهرة يبتدىء عنده حدوثها، لا قوة خفية خارجة عن الظاهرة . ويرى الفلاسفة المعاصرون أن العالِمَ لا يميز علة الظاهرة من الظاهرة ذاتها وبأكملها — . وهذا معنى قول ليبنتز «ان هناك تطابقا بين العلة والمعلول». — فيصبح تطور معاني هذا المصطلح مشابها لحركة دوران حول قطبين، أحدهما ، المعنى الخلقي للعلة أي الارادة الفعالة ، والآخر المعنى المعتاد للكلمة ، الشيء الذي نقصده في الحديث ، ونفرض بقاءه في التجربة ، رغم التغير .

ظهر منذ سنوات بحث طريف لانطوان مييه (Meillet) في كلمة الله وأصلها

الهندى الأوروبى ، يوضح فيه ان الكلمة تعنى فى الأصل الأب والحامى والمدافع . وكان لهذا البحث أثر بعيد فى المناقشة التى دارت بالجمعية الفلسفية حول هذه الكلمة.

يؤدى بنا البحث فى تاريخ الكلمة الى ضرورة التمييز بين طائفتين من المعانى ، احداها نظرية فلسفية والأخرى خلقية اجتماعية . — الأولى تدور حول فكرة تفسير العالم : الله عند اسبينوزا هو العالم ذاته ، الوجود معتبرا فى وحدته المطلقة . ثم الله فى الفلسفة المسيحية ، هو خالق السماء والارض . تدخل أيضا فى الطائفة الاولى بعض معان منطقية : الله مبدأ الحقائق ومحلها الاسمى ، هو الحقيقة المثلى المعيارية . — أما معانى الطائفة الثانية فهى تتفاوت فى التجريد ، انما تخص بالاكثر كائنا شخصيا فعالا . فلدينا من ناحية فكرة الله التى أشار اليها مييه فى بحثه السابق : الله هو حامى القبائل ، أب العشيرة الانسانية ، أعظم أبطال المجتمع ، ورأس الكنيسة (وتعنى الكنيسة مجتمعا من الناس) . الله هو رب أمة خاصة ، شعب مختار من بين الشعوب ، «إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء» كما يقول بسكال . — ولدينا من ناحية أخرى معان عملية أبعد من السابقة عن العالم الواقعى المنظور : فالله فى العقلية الدينية المتحضرة كائن لا متناه له شخصية سامية تتجه اليه آمالنا وصلواتنا ، وهو أيضا ، وخاصة عند الفلاسفة منذ كنت ، عماد القانون الخلقى ومثاله الأعلى .

نجد انفصالا بين الطائفتين ، بل نضالا بين المفكرين الذين يمثلون كلا منهما : هل هناك أى ارتباط فى المعنى بين حامى القبيلة ورأس المجتمع ، وبين مبدأ الحقائق النظرية ومعيارها الأعلى ؟ — يحسن ، قبل أن نحاول التوفيق بين الطرفين ، ملاحظة بعض حدود وسطى : يذكر الاستاذ لالاند ، بعد تعريف اسبينوزا لله ، الجملة الشهيرة التى يبدأ بها المسيحيون قانون إيمانهم «أؤمن بالله واحد أب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض» . نجد إذن فى نص من أهم النصوص ، كلمة الأب

مرتبطة بكلمة الخالق ، أى بمبدأ تفسير العالم ، مما يدل على محاولة ضمنية عند المسيحيين للتقريب بين المعنى الأصلى لله والمعنى الفلسفى البحت . والمحاولة ذاتها صريحة عند ممثلى الأفلاطونية الحديثة ، وخاصة عند ابروقلوس حين يعمل على الربط بين ثلاث كلمات تدل على مبدأ العالم : الله هو الواحد والخير والأب .

إلا أن كثيرا من الفلاسفة المحدثين لا يقررون معنى واحداً عن الله إلا بتضحية المعانى الأخرى . فمن ناحية نشاهد فى مبدأ الفلسفة الحديثة اختفاء ، يكاد يكون كليا ، للمعنى الاجتماعى عن الله ، هذا المعنى الذى وجدنا صدى عميقا له فى الفلسفة المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، ونلاحظ من ناحية أخرى منذ كَنت بوجه خاص ، اختفاء المعانى الميتافيزيقية والمنطقية ، وتغلب المعنى الخلقى المجرد . — ولكن أمر غريب : للمعنى الاجتماعى الذى اختفى وقتا طويلا يرجع ثم يطغى على الفلاسفة أنفسهم بقوة شديدة : فعلاوة على رجال المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، والله فى نظرهم مرتبط بطبيعة المجتمع وبمصيره ، نجد عند الفلاسفة الألمان من أوائل القرن التاسع عشر ، فكرة شعب يسود الشعوب وجنس بشرى يفضل سائر الأجناس ، هو الشعب الجرمانى . وليس غريبا بعد ذلك أن نجد عند بعض المفكرين السياسيين المعاصرين بألمانيا فكرة عن الله تكاد تكونُ بدائية .

غير أن هذا التردد الذى نشاهده فى الفلسفة الحديثة بين اتجاهين ، اتجاه خلقى واتجاه اجتماعى بدائى ، يظهر كما لو كان فى أساس هذه الفلسفة ذاتها : عند ديكارت مثلا ، وسُلطة ديكارت فى الفلسفة الحديثة ما زالت قوية ، الله حرية مطلقة ، أقل ما يمكن أن يقال عنها ، أنها تتنافى مع كل طبيعة ، وتنفر من كل تعقل . — موقف خطير يدل على أن القدماء كانوا أكثر توفيقا من المحدثين فى إيجاد فكرة عن الله تحترم مطالب العقل ، وتوفق بينها وبين رغبات النفس العميقة ، وحاجة المجتمع لأساس روحى متين .

لدينا فيما سبق فكرة وجيزة عن بعض ما دار من المناقشات حول الألفاظ والمعانى الفلسفية، تاريخها وتطورها وما قام بينها من تنازع وما بلغت اليه من وحدة. وقد دون أو لخص الاستاذ لالاند هذه المناقشات ، وارتبط فى تحريره النهائى للشروح والتعاريف بنتائج المناقشة .

انا لنكون مغالين دون شك إن ادعينا أن صاحب القاموس وُفق الى اقناع الفلاسفة باستخدام الألفاظ والمصطلحات استخداما يمنع قيام أى جدل أو خصام بينهم . أو انه نجح فى تحديد المعاني تحديداً يؤدى الى صياغة أحكام فلسفية يؤمن عليها الجميع ، أو يظهر بصددها على الأقل تماثل مواقفهم وتكاملها .

إن كانت هذه غاية بعيدة يرمى اليها الاستاذ، فانه لم يتوخاها لذاتها فى القاموس، ولم يمن نفسه بالوصول اليها — . انا نظنه نجح فى أمرين على الاقل : الاول أنه جمع لمناقشة المسائل المتعلقة باللغة الفلسفية ، كل من تعنيهم أمور الفلسفة فى فرنسا وخارج فرنسا أيضا ، بل نقول كل من تعنينا معرفة رأيه فى هذه المسائل من بين المفكرين . ولا شك أنها خطوة عظيمة ، تلك التى أدت الى اجتماع العلماء والفلاسفة. ومن بين الأخيرين كثير منهم متباينوا النزعة : نجد جنبا الى جنب مفكرين أحرارا ورجالا يناقضون القضايا الفلسفية القديمة ، ثم فلاسفة مسيحيين ، منهم من يرعى معايير العقل ، ومنهم من ينقضها من الاساس : نطالع فى القاموس بجانب ملاحظات برانشفيج وراسل وروه (Rauh) وبرهييه ، اعتراضات وانتقادات بلونديل ولروا ودلبوس ولاشيلييه وجلسون —

ولا عجب فى ذلك إن كان الاستاذ واثقا بأن الفلسفة توطد دعائم الصداقة بين المفكرين ، وتدعو للصراحة فى القول والصدق والاخلاص — . ولا عجب في ذلك أيضا ، ان كان ما يعرضه حضرة الاستاذ على المجتمعين من تعريف لكلمة أو

ملاحظة أو انتقاد يدعو حضراتهم ، لا الى السكوت او عدم المبالاة ، بل الى التحمس لمسائل الفلسفة ولمواقفهم منها . وليس أدل على نجاح الاستاذ فى هذه الناحية من ملاحظات لجول لاشيلييه ، نلمس فيها ، أكثر مما فى كافة الملاحظات ، بعد النظر والعمق والدقة . نجد لاشيلييه ، هذا الرجل العظيم الذى لم ينشر طول حياته إلا بعض صفحات نادرة رائعة ، والذى أوصى قبل وفاته باحراق ما حرره فى أوراقه الخاصة ، نراه لا يضن على صديقه صاحب القاموس ، بالملاحظات والشروح كلما سنحت لذلك الفرصة . نجده يعمل رغم تقدمه فى السن على تنقيح هذه قبل أن تطبع نهائيا.

وفق الاستاذ اذن الى تأسيس روابط روحية متينة بين المفكرين ، وليس هذا بالأمر الهين . — ويجب ان نذكر الناحية الاخرى التى وفق فيها : قلنا انه لم يحلم عند تحرير مقالات القاموس وعرضها على أعضاء الجمعية الفلسفية ، بالوصول الى تحديد المعاني تحديدا نهائيا . لم يمن نفسه أبدا بوحدة موضوعية ، لانها قد تؤدى فى نظره الى شل الحركة الفكرية وتوقفها . ولكن مطالعة كل مقال وما يليه من انتقاد يعمله الاستاذ بعد احصاء معانى الكلمة ، ومطالعة ما يصحب المقال والانتقاد من ملاحظات له ولأعضاء الجمعية ، يحملنا على القول انه وصل الى استخلاص العوامل التى تفرق بين معاني كلمة واحدة ، وتلك التى تؤسس ترابطها واتحادها ، والى الكشف أخيرا عما يعد كلمة من الكلمات (حتى من بين تلك التى شاع استعمالها وعمّ) الى استخدام فلسفى جديد ، الى ما يعطى هذه الكلمة حياة جديدة ، وما يحقق للفلسفة سيرها وتقدمها .

ولا يمكن ان نعيب على الاستاذ ، كما يفعل البعض الآن ، انه لم يربط دراسته للغة والفلسفة باحدث آثار الفكر الحى ، وبلغة المؤلفين الجدد ، فهو بالعكس قد بذل، فى طبعته الخامسة للقاموس ، قصارى جهده ، فتتبع هذه الآثار واقتبس أهم

المصطلحات الجديدة ، وشرحها بعبارات مستعارة من هؤلاء المفكرين أنفسهم ، ولا يمكن ان نعيب عليه عدم تشجيعه لهذه الحركات وما تحدثه من اضطراب فى تصور القيم العقلية . فلم يكن أى قاموس اداة للاضطراب ووسيلة للهدم او لتقلقل الفكر الانسانى .

ويؤمن الاستاذ لالاند ان الفلسفة تقوم على احترام نظم العقل والمحافظة على تراث الماضى ، والعمل على التوفيق بين هذه المحافظة وبين ما يتمتع العقل به من حرية . ولا يعنيه كصاحب قاموس أن يتمشى مع الحركات الثورية الفكرية ، ولن نطالبه بشىء من هذا . إنما نرجو أن يجد أبناء الجيل القادم رجلا مثله يتتبع الحركة الفكرية الناشئة ، ويوفق بين نتائجها وبين الثروة العقلية التى اكتسبها الانسان منذ العصور الاغريقية الزاهرة .

نجيب بلدى